ابراهيم عبد القيوم

حدث ذات ليلة

على غير عادته كان يمشي وهو مطرق وفي خاطره الا يرى شيئا من الاشياء التي حوله ..

ورغما عما يحس به ، من ظروف قاهرة ، وازمات نفسية عنيفة الا انه يصر على أن يتمسك بعادته التي الفها طويلا ، حتى كادت ان تصبح جزءا من حياته اليومية ، وهي ان يذهب كل يوم الى شاطيء النيل ، ويتوضأ ، ويؤدي صلاة العصر ، ثم يبقى على الشاطيء يؤدي ما عليه من عمل ، حتى يأتي وقت المغرب ، فيؤدي صلاة المغرب ، ثم يعود بعد ذلك الى داره ، ولولا هذه العادة التي تأصلت في نفسه لآثر ان يبقى في داره ، والا يبرحها ابدا .

وجلس حاج محمد ، ابن الستين عاما ، الذي عرف صنوفا من الآلام ، والمتاعب ، وعرف بين الناس بالعناد والصراحة والتدين ،جلس في نفس المكان الذي اعتاد ان يجلس فيه ، ثم بدأ يتوضأ ،واستغرق وضوءه فترة طويلة اكثر مما تتطلبه فترة الوضوء ، وكان حوله في تلك اللحظات بعض الصبية يضجون مثلما كان يفعل في الماضي ، فقط جلس في مكانه ، كانت عضلات وجهه تنكمش ، حتى يضيق وجهه ، وكانت تجاعيد جبهته تتحرك حتى تتلاصق في بعض الاحيان ، وتكاد تختلط تماما .

وثار في نفسه شريط طويل من الاحداث الخانقة ،وتمنى لو بكي في تلك اللحظة ،حتى يزيل ما يحس به في نفسه . وعلى غير شعور منه قبض كفة يده اليمنى ، وضرب بها الارض حتى غاصت في رمل الشاطيء .

لم يكن في مقدوره ان يتصور ما حدث . بالامس كانت آماله معلقة بمحصول النخيل ،غير ان الخريف اتى بامطاره الغزيرة ، واتلف الثمر ، وما بقي منه ، جاء محمد صالح التاجر واستولى عليه كله، ومع ذلك فانه لم يغط كل ديونه ، ومن يومها اصبح يلح عليه ويطالبه بباقي الدين . ثم .. تلعقت اماله بمحصول الزرع ، ولكن ها هو يرى اماله تتبدد ،بفعل قوة لا يستطيع دفعها ، او التغلب عليها.

ويزداد انفعاله عندما يتذكر اشجار النخيل والزرع الذي اصبح عيدانا بلا اوراق . وتتضاعف قسوة الالم والانفعال ، عندما يتذكر انه اصبح ذات يوم ليجد سحبا من جحافل الجراد « ساري الليل » تغطي سماء القرية ، ثم تهبط على كل عود اخضر ولا تتركه حتى تأتي على خضرته تماما حتى اصبحت القرية اليوم ، وقد تحول كل شيء فيها الى اعواد يابسة كالحة كئيبة .

وتخيل ما سيترتب على هذا .. تخيل بهائمه وقد جف ضرعها ، ثم تخيلها ، وهي تذهب واحدة تلو الاخرى لتلتهمها الكلاب والذئاب، بعد ان قضى الجراد على العشب الذي تتغذى منه ، وتنهد ، وزفر زفرة طويلة ، والتفت كفاه ، وشابكت اصابعه ، في عنف ،وانتهيا على صدره في ضربة عنيفة ..

ومضى يتذكر ما حدث ، ويتخيل سكان القرية الآمنين ، وقد انطلقوا يشعلون النيران عندما يجيء الليل ليتساقط الجراد فيها ، ويمكن القضاء عليه ، ولكن الجراد كان اكثر من ان تقضي عليه نيران القرية كلها ، بدليل انه في ايام قليلة قد قضى على كل شيء ،ولم يبق على اي شيء ، الا بقاياه المتساقطة في اعياء لانها لم تجد ما تاكله .

ومن جديد ضرب بكفه الارض عندما تذكر ان ثوره الذي يستخدمه في الساقية قد آخذ الاعياء يبدو عليه ، وانه سيموت حتما لانه لا يمكن أن يعيش بلا آكل ،والجراد لم يترك شيئا تاكله الحيوانات، وغدا سيجد الانسان نفسه خائرا منهارا ، لان ما جرى للحيوان سوف يجري عليه . ولم يجد حاج محمد كبير عناء ليصل الى هذه النتيجة، فقط نظر الى اعواد الزرع الخالية من الاوراق ، وتيقن من صدق رأيه.

ونهض واقفا على غير شعور منه ، ونظر امامه الى الجزيرة التي تتوسط النيل فوجدها هي الاخرى يابسة تبعث على الوحشة والكآبة . ولوّح بيده وكأنه يشير الى مجهول ، ليبصره بحقيقة ما جرى للقرية ، وما ينتظرها في ضمير الغيب .

ويهرش شعر رأسه وتضيق نفسه اكثر عندما يتذكر انه لا يملك من الذرة ما يكفي لاكل اسرته لمدة طويلة .. ويتلفت حوله ثم يجلس ويبدو ان تفكيره قد شل تماما ، ولكنه ما يلبث ان يستغفر الله ، اذ تخطر بباله حوادث كثيرة مرت عليه في حياته ، ثم مضت حياته بعدها في سلام ، ويشعر بشيء من الهدوء ، ولكن هدوءه ايضا ما يلبث ان يتلاشى اذ يتذكر انه سيقف غدا امام المحكمة عندما يعجز عن تسديد ديونه لمحمد صالح التاجر . محمد صالح لن يتردد في ان يشكوه كما فعل مع كثيرين غيره .. واذا ما حدث ذلك فماذا يفعل؟.

ان الطرق كلها مسدودة امامه . البلح اتلفه المطر ، والزرع التهمه الجراد ، ومواشيه ستموت حتما ، من عدم العلف ، فماذا يفعل عندما ترفع عليه القضية ، وحتى لو تدخل الوسطاء لحل مشكلته حلا اخويا ، فمن اين له ان يسدد ديونه ؟. ويحس أن المستقبل امامه مظلم ، وان القضية ستواجهه ، وسيحكم عليه العمدة .. برهن ارضه حتى يسدد ديونه ، وهذا هو الامر الذي ظل طيلة حياته يعمل

على تفاديه .. ولولا ان قتل الروح حرام لذهب وقتل محمد صالح التاجر ، وقتل نفسه ايضا ، حتى لا يتم رهن ارضه !..

خطر له هذا الخاطر ، وتذكر ان له ابنا ، ترك القرية منذ فترة طويلة . وانه لا يعرف عنه شيئا سوى ما سمعه من احد جيرانه،كان قد عاد من السفر منذ شهور ، من انه رآه في بلد من بلاد الصعيد . ووجد نفسه يسب ابنه ويقرر ان ابنه لا فائدة منه ، ولو كانت فيه فائدة لما حصل لهم ما حصل . ولما كانت امه واخته تتبادلان ثوب « الزراق » الوحيد الذي تملكانه عندما تريد واحدة منهما ان تخرج من البيت .. ولما وجد محمد صالح التاجر الفرصة ، ليهينه عندما كان محموما واعطى زوجته مسبحته وارسلها اليه ليسلفهم شيئا من السكر والشاي ، فقال لها بدلا من ان يقضي حاجتها : قولي لحاج محمد : سدد باقي ديونك اولا ، وبعدها نرى . وقولي له : الدكاكين مفتوحة لا للعطاء مجانا ولكن لمن يدفع يأخذ .

اذن ابنه هو سبب كل ما جرى له ، ولكنه يعود ويسائل نفسه : لماذا يتذكر ابنا نسي والديه ؟ ونسي اهله وعقابه !ان مثل هذا الابن يجب الا يذكره . ويتساءل مرة اخرى ، كيف وصل ابنه الى هذه الحالة ، وقد رباه تربية حسنة ، ولم يبخل عليه بشيء يملكه حتى اصبح رجلا ، وسافر ليساعد اهله ، فاذا به ينساهم تماما . ويتمتم ولكن يا خسارة « التمساح يلد الورل » .

وتعصر الهموم قلبه ، فتحاصره فيلوح بيده ، ويلعن المطر ، ويلعن الجراد ، ويلعن التاجر ، ويلعن ابنه . ولكنه يتذكر نجاة ، انه نسي نفسه الى حد بعيد ، ونسي صبره ووقاره ، فيتنهد ويستغفر الله ، ويتردد في نفسه ان الجراد قدر من الله لا يمكن رده ،والتاجر حر في تجارته ، وحر في ان يعطيه او يمنعه ولكن علي .. علي ابنه .. هذا هو الذي لا يجد لموقفه مبررا .

علي وحده هو سبب متكلته ومصيبته .. علي .. موته خير من حياته لانه في حالة الموت يدفع عنهم همسات الجيران وتأويلهم حوله، بانه اصبح سفيها ، وانه يعيش مع « الصياع » في الصعيد ... ويتعجب ، ويتردد في نفسه هذا الخاطر : علي ودحاج محمد يعيش مع « الصياع » .. ويضرب كفا بكف ، وتنفجر طاقات الغضب في نفسه ثم ما يلبث ان يهدأ قليلا ، عندما يشع في نفسه خاطر ، بأن سلوك علي شيء مقدر هو الاخر ، ويتمتم : رضينا بالقضاء والقدر !

ويفيق قليلا من امواج الازمات التي تتصارع في نفسه ،فيرى قرص الشمس الحمراء ،وقد اختفى جزء منه وراء قبة الفضاء ،ويتأمل فيها ويدفعه هذا التأمل في قدرة الله التي تجعلها . تشرق وتغرب بنظام دقيق .. ويطمئن اكثر ، ثم ينهض بعد ذلك ، وبعد تأملات روحية جعلت اسارير جبهته تنطلق بعض الشيء ، ثم يؤدي الصلاة، ويتجه قاصدا منزله .

يمضي في الطريق ورأسه مطرق ، وذلك حتى لا يرى ما حوله من الاشجار والزرع الذي اصبح عاريا من غير ورق ويدخل البيت فيلمح لسانا من الضوء في احدى الغرف ، يتراقص على هبات النسيم..وتحس زوجته بمقدمه فتخرج اليه من الغرفة ، وتسأله ان كان قد اقنع التاجر بأن يعطيه ملابس لها ولابنتها ..

ولكن حاج محمد يتشاغل عن سؤالها ويأخذ في مداعبة حبات مسبحته . وتحس زوجته بأنه لا يريد ان يجيب على سؤالها ، فتقترب منه وتشعره في كلمات قاطعة ، بانها وابنتها لا تستطيعان ان تصبرا اكثر مما صبرتا ، وانها هي ان صبرت فان ابنتها لا يمكن ان تستمر على هذه الحالة ، تتقاسم مع امها ثوبها الوحيد من الزراق ، عندما تريد الخروج الى زيارة الجيران .. ماذا يقول عنها الناس؟. وهل بنات الجيران خير منها ؟ وماذا يفعلان لو تقدم اليها ابن حلال.؟

ويتعجب حاج محمد من تفكير زوجته التي لا تحس بالكارثة التي تحيط بحياتهم وحياة القرية ، ولا يهمها شيء سوى زواج ابنتها !.

وتلاحظ الزوجة ان زوجها لا يعطي كلامها اهتماما ، فتصرخ في وجهه مؤكدة ما سبق ان قالته ، وتضيف عليه .. ان تلك هي قسمتها التي ربطتها برجل يعجز عن « كسوة » ابنته !

ويزفر حاج محمد ، وقد اثر فيه كلام زوجته ، ويقول لها : خافي الله . حاج محمد لا يقصر في بيته ، وبنته اغلى من روحه .

وتقاطعه زوجته ، بأن حالة ابنته وحالتها ، هي عين التقصير ، والذي لا يكسو ابنته وزوجته مقصر ، سواء كان حاج محمد او حاج احمد ..

ويحس حاج محمد بالغضب ، ولكنه يكبت غيظه ويصمت .ويزداد صوت زوجته ارتفاعا ، فتأتي ابنتها طالبة منها ان تدع والدها يرتاح، ومؤيدة لقول امها بأنه لا يقصر عندما يكون لديه شيء ، وتصرخ الام في ابنتها ، وتأخذ في سبها وسب ابيها ، فتصمت البنت وتنزوي بعيدا ، ويخرج حاج محمد من المنزل ، ونشتط زوجته غضبا ،وتأمر احد اطفالها ان يلحق بأبيه ويطلب منه ان يعود الى البيت ،متوعدة انها لن تتركه حتى يعطيها كلمة قاطعة في هذه الليلة .

انصاع الطفل لاكلام أمه ، ونهض من عنقريبه ، وخطا خطوات ليلحق بأبيه ، ولكنه صرخ فجأة ، وأخذ يقفز ، وتجاوبت معه امه في الصراخ ، وصرخت اخته .. وجد الحاج نفسه يجري عائدا الى البيت، وينضم الى أفراد اسرته ويحمل الطفل الى احدى الغرف ،ويرقده على عنقريب بدون فراش . وأخذ قطعة من القماش ، وربط بها ساق الطفل ، حتى لا يتسرب سم العقرب التي لسعته الى باقي جسمه .

ولم تكد تمضي دقائق ،حتى امتلأ المنزل بالجيران وانطلقت الاصوات تطلب احضار فكي ايوب ، وحاج الخضر ، وحاجة الروضة.. وذهب اكثر من شاب للقيام بهذه المهمة .

وكان اول الحاضرين من المطلوبين هو حاج الخضر الذي جلس بجانب الطفل ، واخذ يتحسس قدمه وينظر اليها بامعان على ضوء السراج الخافت ، ويهتز حاجباه ، وهو ينظر الى مكان في حافة القدم ، تكورت حوله نقط من العرق،ثم يفتح «جرابه» ويخرج منه آلة حادة ، يحدث بها فصدات صغيرة في قدم الطفل ، ويبدأ في امتصاص المكان الذي به الفصدات ويبصق دما من وقت لاخر ، وبينما هو يوالي عمليته يدخل فكي ايوب، ويجلس بالقرب من رأس الطفل ، ويضغط على جبهته بكفه ويتمتم ببعض الادعية ، وينفث من وقت لاخر على رأس الطفل . كل هذا والطفل يتلوى في الم ، وتنقبض عضلات وجهه في بعض الاحيان بطريقة مخيفة ، ويحاول في احيان اخرى ان ينهض ولكن الجالسين حوله يضغطون عليه ويجبرونه على البقاء حيث هو.. وعقب كل محاولة منه للنهوض ، كان يتقيأ شيئا اشبه بزبد البحر ويتردد همس من هنا وهناك : الولد ملأه السم . وتتعالى الاصوات طالبة له الشفاء ، ويتردد اسم اكثر من ولي من اولياء الله ... الصالحين ..

كانت امه تجلس على الارض بجانب عنقريبه صامتة لا تقول شيئا، فقط تتدافع الدموع على خديها .. لقد نسيت كل شيء ، نسيت شجارها مع زوجها ، ونسيت ابنتها التي تقاسمها لبس ثوب الزراق، الواحد واصبح تفكيرها منحصرا في شيء واحد هو ان يشفى ابنها .. شفاء ابنها هو قضيتها الان .. قضيتها الوحيدة ، اما أبوه ، فلقد كان يفكر في شيء اخر .. ماذا لو حدث امر الله ، وهو متوقع في كل لحظة ؟.هل سيعامله التاجر محمد صالح مثل معاملته السابقة له، ويرفض ان يسلفه ما يستر به جنازة ولده ؟.

ويتجسد هذا الشعور في نفسه عندما يتأكد من ان التاجر محمد صالح هو الوحيد من اهل القرية الذي لم يحضر لعيادة ابنه .ويجد نفسه يتساءل : ان كان المال يجعل اصحابه لا يحسون بالمشاركة الانسانية ؟ ويبدو له هذا شيئا غريبا ، ولكنه يطرد هذه الخواطر من نفسه ، وتنبثق جذوة من الامل في اعماقه ، بان الله سيشفي ابنه فيحس بشيء من الارتياح .

ويقطع عليه خواطره صوت اخذ يتردد من خارج الغرفة . كان صوتا نسائيا مبحوحا ، وكان يردد : باسم الله .. مدد يا اسيادي، مدد يا اهل الله . مدد يا اهل الحظوة .. نادهاكم تكشفوا الغمة ، وتزيلوا المحنة من ود اسيا .

وتدخل الحاجة الروضة ، وهي ترد دعواتها ، وتتملق بهاالاعين. ولكنها لا تهتم بشيء ، فقط تطلب مبخرا ونارا ، وتفك صرة في طرف ثوبها وتخرج منها شيئا من البخور ، وتضع البخور على النار ، وينطلق الدخان ، ويملأ اجواء الغرفة ويكثر السعال حتى الطفل المصاب اخذ يسعل هو الاخر ،ثم تفك صرة اخرى وتخرج منها شيئا من الرمل، وتذره على جسم الصبي .. وترد دعواتها السابقة .

ويتردد الهمس في الغرفة خلال ذلك تقول امرأة : لو اعطي الولد عصير الليمون لكان السم قد فسد في جسمه ، ويقول رجل، لو كنا احضرنا فكي عبدالدائم بدلا من الفكي ايوب لكان الطفل قد شفي بعد لحظات .. فكي عبدالدائم « ايده لاحقه » وتهمس امرأة : يعلم الله لو كانوا لبخوا مكان اللسعة بالعطرون والملح كان الولد طابونام.

وينهمر سيل المقترحات ، ويكثر ذكر الوصفات ، وتمر ساعات ثقيلة كئيبة حزينة ، ما يلبث الطفل بعدها ان يهدأ قليلا ، ثم يروح في نوم متقطع .. تتعالى بعده التهاني الابوية ، ويبدأ الناس في الذهاب الى منازلهم ،ولكن فكي ايوب قبل ان يخرج يوصي بان يكتب للطفل حجاب يحفظه من العين ، التي جرت عليه لسعة العقرب ،وبعد بانه سيكتب الحجاب ويحضره غدا معه .

وحاج الخضر يوصي بان يمسح جسم الطفل بالزيت الممزوج بالملح وانه سيحضر في الصباح لرؤيته ، اما حاجة الروضة ، فانها توصي بان يذهب الطفل الى ضريح الشيخ « العزب » وان تقام له « كرامة » كبيرة وتنظر الى زوجة حاج محمد نظرة ذات مغزى وتقول لها :ما تنسي اهل الله طيبوا ولدك ، وعليكم ان تقيموا لهم الكرامة ، وتطلب منها ان تحضر « البياض » لانها ستاتي غدا وتاخذ الطفل لزيارة الشيخ العزب .

وترحب زوجة حاج محمد بالفكرة ، وتعد بانها ستنتظرها مستعدة لكل شيء ، وتذهب هي نفسها معهما الى الزيارة .

وتمر لحظات ، ويجد الزوج والزوجة وابناؤهما وحدهم ،ويقول حاج محمد ، الحمدلله ربنا قدر ولطف .

ويأتي رأي الزوجة مطابقا لرأي زوجها ، ولكنها تضيف الى ذلك ما يؤكد بانها تصر على ان تقيم لابنها « كرامة » لم تشهد البلدة مثلها ، ثم تطلب من زوجها ان يحضر الفلوس التي ستذهب بها الى الزيارة مع حاجة الروضة ، والفلوس التي ستعطيها فكي ايوب عندما يحضر الحجاب لابنها ، حتى يحرسه من العين ، ويحفظه من العقارب!

يبلع حاج محمد ريقه ويتذكر الازمات التي مرت به . يتذكر المطر الذي اتلف بلحه ، والجراد الذي قضى على زرعه ، ويتذكر التاجر محمد صالح الذي اهانه امام زوجته ، ثم يتذكر المحنة التي تعرض لها ابنه ، فيثور في نفسه ، شيء ، ولكنه يكبح جماح غضبه ، ويطلب من زوجته ان تنتظر حتى الصباح ،ثم يتشاوران في الامر .

ولكن الزوجة لا ترى مبررا للانتظار حتى يجيء الصباح وتطلب من زوجها ان يؤكد لها بانه سيحضر الفلوس لفكي ايوب ولزيارة الشيخ العزب . وبعد هذا لا بد ان يؤكد لها بانه سيقيم كرامة كبيرة من اجل شفاء ابنهما .

ويرد حاج محمد : ان شاء الله كل شيء يتم باذن الله ، وتحس الزوجة ان زوجها لا يريد ان يعطيها كلمة قاطعة ، وتنهض واقفة وتتقدم نحوه ، وتقسم بانها لن تبقى في المنزل ما لم يلتزم زوجها بكل طلباتها .. و .. ولكن قبل ان تتم كلامها ، ينطلق صوت خارج الدار : يا حاج محمد .. يا حاج محمد .

ويرد الحاج على النداء ، ويسأل عن صاحب الصوت ، ويرد المنادي انا صالح يا عمي الحاج .. البشارة .. ولدك علي جاء من السفر .

وينهض حاج محمد ويجري نحو الباب ، وهو لا يكاد يصدق اذنيه ، وتتبعه زوجته وابنته ، وهما تزغردان بصورة تلونها العبرات .. وحتى الطفل المسلوع يفتح عينيه المرهقتين ليعرف حقيقة ما جرى.

ومن جديد يمتلىء البيت بالناس ، وتتغير الصورة ، ويهم حاج محمد بعد خروج المهنئين ان يشرح لابنه ما يصادفه من ازمات ، ولكن ابنه يطلب منه الا يقول شيئا ، ويعرفه انه علم بكل شيء ، ومن اجل هذا حضر .. ويقول لابيه : الان اعتبر كل شيء قد انتهى !

وتصيح الام : انا عارفة .. ولد ارضعته لبني لا يمكن يطلع خايب .. اما حاج محمد فيتردد في نفسه هو : الحمد لله كل ليل لا بد ان يعقبه فجر !!

الخرطوم ـ ابراهيم عبدالقيوم

خليل مطران

مختارات من شعره

قدم لها الشاعر

احمد عبدالمعطي حجازي

يصدر هذا الشهر